خمسة في سيارة

٦

اقبل الصيف بحره الشديد وأخذ كثيرون من اعيان المصريين والاوربيين يستعدون لمغادرة القطر المصري قاصدين الى مصايف اوربا . ومن اشهر مدن الاصطياف والاستشفاء التي يقصد اليها المصريون وغيرهم فيشي المشهورة بمياهها المعدنية في كل انحاء العالم. وفي المقالة التالية وصف الاستاذ الجريديني فيشي والاستشفاء بمائها وصفاً بليغاً فيه كثير من التهكم اللطيف بعد مقدمة عالج فيها موضوعاً عمرانياً جليلا هو موضوع التفرنج واقتباس الشرقيين للمدنية الاوربية

الشرقيون واقتباس المدنية الاوربية

.. وكانت السيارة تسير خبباً والسكون مخيماً على القوم حتى يكاد النوم يدخل عليهم خلسةً ذلك انهم كانوا يسيرون في طريق سهل ممهّد طويل يصل ما بين انسى واكس له بان ثم يعرج في منبسط من الارض لا حدّ لهُ يخترق مديرية البويده دوم (Puy de Dome) في طريقهم الى فيشي

نخاف صاحبنا المصري عقبى السكون لعلهُ يدخل الملل الى النفوس فيقضي على أنس هذه الصحبة فجمع كما يقول الافرنج — كل شجاعته في يديه وقذف بها في وجه السيدة الافرنسية قائلاً انني والحق يقال معجب بك يا سيدتي كل الاعجاب

فذعر الافرنسي وقال ما هذا . امطارحة غرام فجأتي رويدك اشفق على صحتك

وضحك منهُ القوم فزال ماكان بهِ من حياء وقال . لا . لا . هذه سيدة شرقية مثلي احببت ان اعرب عن اعجابي بها وتقديري لها

فابتسمت السيدة وقالت وما الذي فعلت حتى استأهلت تقديرك

قال اني اعرف في مصر عدداً غير قليل من السيدات اللائي يمتن بنسب كريم الى اصلك اللبناني او السوري ولكنني ما عرفت منهنَّ الا القليل القليل الذي يفخر بعروبتهِ

قالت وقد ولدت في فرنسا ولا تعرفين كلمة واحدة من العربية اراك اذا سئلتِ قلت انك « بنت عرب » واذا فاخرتِ زوجك فاخرتهِ باصلك العربي

اما اللواتي اعرفهن عندنا فيمزقن العربية ويخفينها ويقلدن الافرنج محتقرات كل ما هو عربي

فما هو السر في هذا ؟ اتخطئ انا ام هنّ من الخاطئات ؟ قالت اني استغرب ما تقول واكاد لا اصدقهُ — اني اعترف بما يوافقني عليهِ كل عاقل بان المدنية الغربية خير المدنيات وانها على كل حال المدنية الغالبة فمن لم يماشها ضلّ السبيل ووقف في المؤخرة ولكنني لا اتنازل عما يكوّن شخصيتي مهما كانت الحال

فليست المدنية الغربية في لغة يرطن بها او في هندام يؤتزر بل بمقوّمات اخرى مادية ومعنوية . فاذا ما اعتنقت المدنية الغربية اعتنقت مقوماتها وابقيت لنفسي « شخصيتها » ومزيتها . ألا ترى ان المدنية الغربية تشمل الافرنسي والانكليزي والطلياني والاميركي . فهل ترك هذا لغتهُ لذاك او طلق شخصيتهُ حبًّا في تلك ؟ لا . فلماذا لا تشمل المدنية الغربية شخصية مصرية واخرى لبنانية وهكذا . ولماذا لا اكون عربية اللغة غربية المدنية . وهل رأيت رجلا ذا قيمة يطمع ان يكون كاتباً في غير لغتهِ او هل يطمع الانكليزي مهما اتقن الافرنسية ان يصير ذا شأن في الادب الافرنسي

لا . لا . ليس لنبيّ كرامة الاّ في وطنهِ . وانك اذا عرست بهؤلاء الغربيين عرّسي بهم لرأيت انهم لا يحترمونك اذا هدمنا شخصيتنا جرياً وراء تقليدهم . انهم اقوام ذوو كبرياء فلن تبلغ منهم مبلغاً ان لم تحتفظ بكبريائنا

وقطع الانكليزيُّ الحديث فقال بل نحن — وانا اتكلم عن جنسنا الانكليزي — كالجوز او كاللوز لا بدّ من كسرهِ قبل ان تأكلهُ

وكانت هذه من الدقائق العمر عند صاحبنا المصري وازداد اعجابهُ بالسيدة اللبنانية واحترامه لها وكاد لولا حرمة الموقف وحرمة الزوج وحرمة ألسن السوء ان يهمّ بيدها يقبلها ولكنهُ امسك وحفظ الامر في قلبهِ

واسرعت السيارة وحيث الشمس وظهر الغبار على الارض يتناول وجوه القوم وعيونهم يذكر المصري بلاده فذكر اخواناً لهُ هناك يصبحون ويمسون وشل هذا الغبار مخيّم ابداً عليهم فحسب نفسهُ في نعيم اذا قاس نفسه بهم فما تذمر ولا تشكى مما جعل الافرنسي يقول والله انك ايها المصري اوفرنا ادباً فلم نسمع منك شكوى من حرّ او تذمراً من تراب . فسكت صاحبنا دقيقة او دقيقتين ثم قال « اشكرك » . وهكذا الى ان هبطت بهم السيارة نيشي

فيشي

وما اخطأ من اعلن عنها فقال انها ربة مدن المياه المعدنية . فهي اشبه شيء بالكنيسة الكاثوليكية جامعة شاملة تضم الاجناس من مشارق الارض ومغاربها يحجون اليها مجمعين على ان ماءها طاهر مقدس يحيي الاموات متنازعين في ما سوى ذلك

اجلس على كرسيك في وسط الحديقة المؤدية الى ينابيع المياه وارقب الناس يمرون هذا قادم مع صديق لهُ يتكلم مشيراً برأسه ويديه تحسب جسمهُ في ناحية وبذلتهُ في ناحية اخرى من سوء ما خاط الخياطون ، وشاربه عزّ عليه فلا غنى لهُ عن شعرة واحدة منهُ وقد يطيب لهُ جوار شعره فيطلق لحيته او لا يحلقها الا [illegible] الاسبوع. هذا فرنسوي لا غش فيه ! والفرنسويون معظم النازلين في فيشي وهي ارخص مدن المياه في فرنسا واطيبها طعاماً . وقد يكون هذا الامر علة الامر الآخر

وهذا رجل اسمر يكاد يضع برنيطتهُ على مؤخر رأسه ولكنهُ حسن الهندام بطيء الخطى — فهو مصري

أما الاجناس الاخرى فلا تعد ولا تحصى ولا يستطيع الناظر أن يميزها الا من لغاتها . فالرطانات هنا اكثر من ان تعرف وأغربها الرطانة العربية التي ينطق بها الجزائريون والتونسيون والمراكشيون

فكم حاول صاحبنا المصري ان يفهم ما يقولون على غير جدوى حتى انهُ جلس الى بعضهم فرأى انهم اذا أحبوا ان يفهموا شيئاً عبروا عنهُ بالفرنسوية الا بعضاً يتكلم ما يقرب ان يكون لغة عربية فصيحة ولكنهم أقل من ان يذكروا

ولا أدري لماذا يلبس هؤلاء القوم لباسهم الاهلي في فرنسا وهم لا يتكلمون الا لغتها ولا يعرفون الا أرضها وليس لباسهم مما ترتاح اليه العين او يألفهُ الذوق السليم . فليس هو مما يعتزّ به الشرقي بحال من الاحوال وليس هو مما يرضي الغربيين

***

منظر عجب هؤلاء الناس زوار فيشي رجالهم ونساؤهم . اعطى الطبيب كلاً منهم كأساً وقال اشرب بحساب ففي هذا النهار تشرب خمسين غراماً في الساعة الحادية عشرة وخمسين منها بعد نصف ساعة من تبع كذا وفي اليوم التالي أو ما بعده تشرب سبعين

غراماً من النبع كذا في الساعة ذاتها . وهذا نبع يشفي من هذا الداء وذاك يشفي من ذاك الداء ؛ وبين النبعين مسافة تقاس بالأشبار

فترى المريض المسكين أو الموهوم المسكين واقفاً يلمس الماء من فتيات يدرن كالاقمار حول أنابيب الماء لا يتبسن ولا يتلفظن القول لمن يلحّ

فوالله لتحسبنّ هذه الينابيع كعبة يحج اليها هؤلاء الآلاف كأن الايمان يأبى الاّ ان يكون المحرك الاكبر في اعمال البشر ، المريض منهم والصحيح

فاذا شرب فريق حل محله فريق آخر وهكذا حتى يتم الله نعمته على الوافدين

ثم تراهم وقد انتشروا في حديقة الكازينو ذهاباً وإياباً تحت اشجار باسقة هذا يمشي وذاك يعدو وذلك مستلقٍ على ظهره سيّان في ذلك الذكر والانثى فتخالهم يحشرون الى ربهم في سكوت وهدوء وترتيب . فانك لا تكاد تسمع لهذا الجمع دويًّا في أي مجلس حلّوا وهذه آية من آيات النظام في المدنية الغربية . اما الحمامات فحدث عنها ولا حرج . غرف متعددة موسومة بارقام وفي كل منها نوع من الاستحمام يختلف عن الآخر اختلافاً الفهُ ذو الفن في اقتناص المال . فمن حمام وانت واقف الى آخر وانت على جنبك الايمن او على جنبك الايسر الى آخر وأنت على ظهرك يتلقفك رجل ورجل — دع عنك مختلف درجات الحرارة في هذه الحمامات فعددها يزيد عمّا في الترمومتر من درجات

هذا وانت في الماء فكيف اذا قضي عليك فوصف لك الحمام الكهربائي او الحمام بالهواء الساخن او التمرس بالآلات الميكانيكية تحركها الكهرباء

***

أما اطباء فيشي فقوم عليهم السلام . أبت عليهم المدن الكبرى ان يظهروا فيها علمهم ونبوغهم فيمموا محطات المياه المعدنية تحت جناح الشركات المالية التي تنشىء هذه المدن وتهيء لها ما تهيء من أسباب الراحة واللهو والاستشفاء مردفة الامر بجيش من الدعوة والتبشير يملأ الصحف

فاذا سمعت الطبيب يصف لك كيف تأخذ هذا الحمام وكيف تشرب الكأس من الماء فلتثق في الامر سرًّا وفي هذه المياه شيئاً لا يمسهُ الاّ المستطل بظل الطبيب الظليل

ومن اليه من ارباب الفن الطاهرين . فاذا ما خبرت الامر وعرفتهُ وجدت حماماتهم لا تختلف عما تألفهُ في بيتك وعما يمكنك فعلهُ لو اهتممت ببعض الاهتمام ببسيط مبادئ علم الصحة

وأما الماء فباح لا ضرر عليك ان جرعتهُ مرة واحدة او مرتين . وهذه الينابيع لا يعد أحدها عن الآخر بعداً يجعل معدنه مختلفاً عن معدن الآخر

ولكنك ان أُصبت في الكبد فلك جرعات من هذا الماء او في الكلى فجرعات من ذلك او في المعدة فمن الآخر وقد تدور بها جميعاً تذوقها واحداً واحداً ولست تدري أين تبدأ وأين تنتهي حتى ترى صديقاً لك مصاباً بمثل علتك فتراهُ يشرب غير ما تشرب ويدور على عكس ما تدور فتقف حائراً ولكنك لا تستطيع الشك في امر الطبيب

يعودك طبيبك المرة الاولى في غرفتك فيصف لك ما يصف من ماء للجوف وماء للجسم وتنفذ امرهُ ثم تعود اليه بعد اسبوع او اقل فتدخل عليه فيقعدك الى جانبه يسألك بكل وقار وتهيب اذا كنت متعباً من الماء الذي شربت ! وماذا شربت ؟ انك بللت رمقك بشيء قليل لم تشعر به اكثر من شعورك بهذا الهواء الذي تتنشق فم تتعب ؟

تجيبهُ انك لم تتعب فيزيد لك الجرعة ثم يضرب لك موعداً آخر وهكذا الى ان يأتيك الفرج وتنتهي ايامك وعددها واحد وعشرون ثم ترحل فوالله لن تدري أكنت تضحك من نفسك أم كان الطبيب العالم يضحك منك

***

ولكن صاحبة فيشي شركة مالية غنية قوية للحكومة ضلع وافر في دخلها فهي تبذل كل أسباب الراحة وتوفر كل انواع العيش الهنيء حتى تجعل فيشي قبلة للناس اجمعين

فما هو غرض الشركة ومن أين يعود عليها الربح الوافر ؟

فماء فيشي المعدنية مباحة للجمهور بلا مقابل الا ما يباع منها للبلاد الاجنبية وأجر الحمامات ليس مما يعود على صاحب هذا البناء الضخم بربح . والحدائق الغناء مع غابة فيشي الواسعة الاطراف لا بد لصيانتها من مال يبذل ولا يدفع الوافد الا جعلا ضئيلا لا يذكر لدى دخولها . والشركة كريمة على الاطباء وارباب الصحف تغدق عليهم حماماتها ومسارحها مجاناً . فما هو السر في ذلك ؟

السركله في الكازينو ! وما الكازينو الاَّ عمارة جمت البهو الجميل الواسع والحديقة الغناء مرصوصة بالازهار وبالكراسي راحة للتعيين وبانغام الموسيقى تصدح في الليل وفي النهار — وكل ذلك طريق يقاد منهُ الزوار الى بهو الباب القهار

وهذا البهو عَجَبٌ في عَجَبٍ . موائد خضراء عملاً الجوانب يدعو اليها الندل ومن اليهم دعاء مستجاباً فتجلس النساء عاريات أو نصف عاريات والرجال مرتدين السواد فتلمع الملايين وتتناقلها الايدي من هنا ومن هناك فتذوب في اثناء هذا الاتقال وتتسرب في ثقوب المائدة الخضراء

***

وقد زار صاحبنا المصري فيشي غير مرة وكانت لهُ زورة واحدة في كل مرة الى هذا البهو بهو القمار فما رأى فيهِ شيئاً الاَّ تكالُب الناس على المال ووجوههم كوجوه الوحوش الضارية خلا معظمهم من حسن العشرة او من أدب الكمال يستوي في ذلك الغني والفقير والامير المزيف والامير الحسيب النسيب . وافظع ما في هذا المعرض السيدات . فانك لا تدري لماذا تهافت هذه الجائزُ على موائد القمار الاَّ لكي يزددن في قبح الخَلق قبحاً في الخُلق . بل جارتهن الصبايا مقصوصات شعورهن فتساوى رأس الفتاة برأس الفتى وتساوى الطعان خشونة بفعل هذه الموائد

رحم الله اياماً كان النساء يضفرن غدائرهن مخافة الضلال في الشعر ورحم زمناً كان سدل الشعر على الاكتاف آية من آيات الجمال . فقد مرَّت بنا نحن الرجال عصور فوق عصور ننظر الى الشعر قصدهُ متساً لجمال المرأة ، هكذا صور المصورون وهكذا شبب الشعراء . ونحن لا نطلب من سيداتنا الآن عصوراً أخرى حتى نألف هذا الجمال الملامي بل بضع سنين لا تزيد على اصابع اليدين

اما من هذه الساعة الى ذلك الميعاد فلتسمح لنا سيداتنا أن نستقبح رأس الملام على جسم المرأة

تلكم فيشي انزع منها الكازينو ترها جنة من جنان الارض . وألبسها الكازينو فهي كما هي — وما ادراك ماهيه — نار حامية

سامي الجريديني

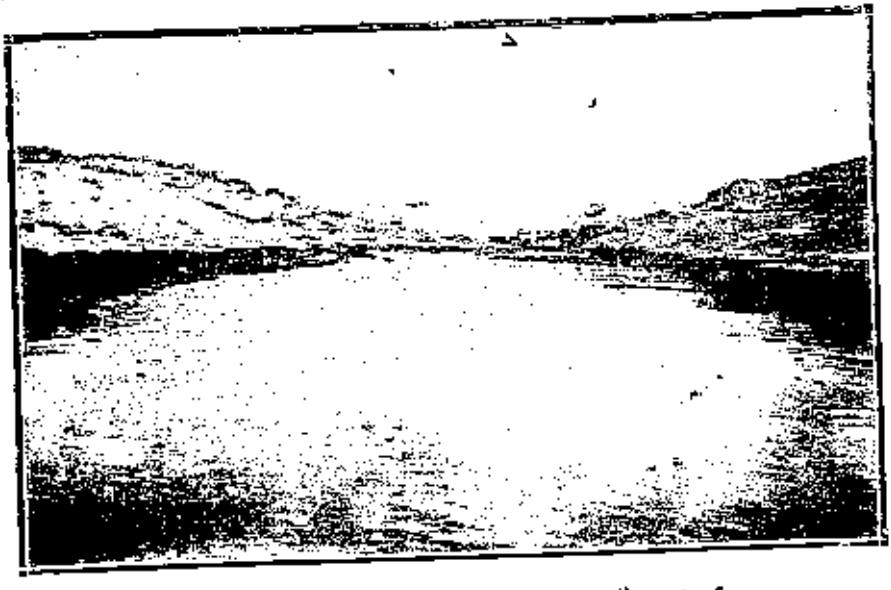

بحيرة من النفط حيث تفجرت البئر قرب بابا قرتر في كركوك
وادل البحيرة التي رآها الاسكندر كانت هناك

صور أخرى لآبار النفط على مقربة من كركوك حيث تفجرت بئر وانطلقت
تجري النفط سيلاً واشتعل بعضه كما ترى ولا يزال مشتعلا

مقتطف يوليو سنة ١٩٢٨
امام الصفحة ٣٣